**كتاب محاضرات في علوم القرآن –د.غانم قدورى (ص: 25-28)**

**المبحث السادس**

**تنجيم القرآن والحكمة منه**

**أولا- نزول القرآن منجّما:**

لمينزلالقرآنالكريمعلىرسولاللهصلىاللهعليهوسلممرةواحدة،وإنمانزلمفرّقا،وظلجبريلينزلعليهبالقرآنمدةثلاثوعشرينسنة،فيالرأيالراجح،فقدروىالبخاريعنعبداللهبنعباسأنهقال: «بعثرسولاللهصلىاللهعليهوسلملأربعينسنة،فمكثبمكةثلاثعشرةسنةيوحىإليه،ثمأمربالهجرة،فهاجرعشرسنين،وماتوهوابنثلاثوستين».

ونزولالقرآنمفرقايسميهالعلماءتنجيمالقرآن،ويسمّونالشيءالنازلمنهفيالمرةالواحدةنجما،لأنمنمعانيالنجمفياللغة «الوقتالمضروب»وقد

قالتالعرب: «نجّمتالمال،إذاأدّيتهنجوما ... وقدجعلفلانمالهعلىفلاننجومامعدودةيؤديعندانقضاءكلشهرمنهانجما،وقدنجّمهاعليهتنجيما». قالأبوشامةالمقدسي: «فلماقطّعاللهسبحانهالقرآنوأنزلهمفرقاقيللتفاريقهنجوم».

* وأثارالمشركونمسألةنزولالقرآنمنجمافيسلسلةمعارضتهمالباطلةللنبيصلىاللهعليهوسلموتمنوانزولالقرآنجملةواحدة،علىنحوماحكىالقرآنفيقولهتعالى: وَقالَالَّذِينَكَفَرُوالَوْلانُزِّلَعَلَيْهِالْقُرْآنُجُمْلَةًواحِدَةًكَذلِكَلِنُثَبِّتَبِهِفُؤادَكَوَرَتَّلْناهُتَرْتِيلًا (32) وَلايَأْتُونَكَبِمَثَلٍإِلَّاجِئْناكَبِالْحَقِّوَأَحْسَنَتَفْسِيراً (33) [الفرقان].
* وللعلماءوالمفسرينتحقيقاتفيالجهةالتيينزلمنهاجبريلعليهالسّلامبالقرآنعلىالنبيصلىاللهعليهوسلموهذهقضيةتستندأساساإلىماوردعنهافيالقرآنالكريم،ويعتقدالعلماءأنالقرآنمثبتعنداللهتعالىفيأمالكتاب،فياللوحالمحفوظ،مستندينفيذلكإلىقولهتعالى: حم (1) وَالْكِتابِالْمُبِينِ (2) إِنَّاجَعَلْناهُقُرْآناًعَرَبِيًّالَعَلَّكُمْتَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُفِيأُمِّالْكِتابِلَدَيْنالَعَلِيٌّحَكِيمٌ (4) [الزخرف]،وقولهتعالى: بَلْهُوَقُرْآنٌمَجِيدٌ (21) فِيلَوْحٍمَحْفُوظٍ (22) [البروج]. قالالمفسرون: إنالقرآنمثبتعنداللهسبحانهفياللوحالمحفوظ،وسمّيأمّالكتابلأنهالأصلالذيأثبتتفيهالكتبالسماوية (3). وقدحملبعضالمفسرينقولهتعالى: إِنَّهُلَقُرْآنٌكَرِيمٌ (77) فِيكِتابٍمَكْنُونٍ (78) لايَمَسُّهُإِلَّاالْمُطَهَّرُونَ (79) [الواقعة] علىاللوحالمحفوظ،والمطهرونالملائكة (4).
* ويعتقدكثيرمنالعلماءوالمفسرينأنالقرآنأنزلجملةواحدةمناللوحالمحفوظإلىالسماءالدنيا،وكانجبريلعليهالسّلامينزلبالقرآنبعدذلكمفرقاعلىالنبيصلىاللهعليهوسلموكانوافيذلكيستندونإلىتفسيرعددمنالآياتالكريمةالتيتتحدثعنإنزالالقرآنالكريم،وهيقولهتعالى:

شَهْرُرَمَضانَالَّذِيأُنْزِلَفِيهِالْقُرْآنُ (185) [البقرة].

حم (1) وَالْكِتابِالْمُبِينِ (2) إِنَّاأَنْزَلْناهُفِيلَيْلَةٍمُبارَكَةٍ (3) [الدخان].

إِنَّاأَنْزَلْناهُفِيلَيْلَةِالْقَدْرِ (1) [القدر].

وهذهالآياتالكريمةتتحدثعنوقتنزولالقرآن،ولاتشيرإلىالكيفيةإلاإشارةعامة،كماأشارتآياتأخرىإلىهذاالمعنىأيضا،لكنالمفسرينينقلونعنعبداللهبنعباس،رضياللهعنهما،أنهفسّرهذهالآياتبقوله:

«أنزلاللهتعالىالقرآنكلهجملةواحدةفيليلةالقدر،وهيالليلةالمباركة،فيشهررمضانإلىالسماءالدنيا،ثمنزلبهجبريلعليهالسّلاممفرقاعلىالنبيصلىاللهعليهوسلمفيثلاثوعشرينسنة،حتىأتمّه.

ونقلالمفسرونقولاآخرفيتفسيرهذهالآياتعنأحدكبارالتابعينهوعامربنشراحيلالشعبي (ت 103 هـعلىخلاف) الذيقال: نزلأولالقرآنفيليلةالقدر،ثمنزلبعدذلكمنجمافيأوقاتمختلفة (2).

* وقدقالابنحجر: إنالقولالمعتمدالصحيحهوأنالقرآننزلجملةواحدةمناللوحالمحفوظإلىالسماءالدنيا،ثمأنزلبعدذلكمفرقا.

وقالأبوشامةالمقدسي: إنهلامنافاةبينالآياتالثلاث،فليلةالقدرهيالليلةالمباركة،وهيفيشهررمضان. ثمقال: «إنأولمانزلعلىالنبيصلىاللهعليهوسلماقْرَأْبِاسْمِرَبِّكَالَّذِيخَلَقَ (1) وذلكبحراءعندابتداءنبوته،ويجوزأنيكونقولهأُنْزِلَفِيهِالْقُرْآنُ (185) [البقرة] إشارةإلىكلذلك،وهوكونهأنزلجملةإلىالسماءالدنيا،وأولنزولهإلىالأرض،وعرضهوإحكامه،فيشهررمضان،فقويتملابسةشهررمضانللقرآنإنزالاجملةوتفصيلاوعرضاوإحكاما،فلميكنشيءمنالأزمانتحققلهمنالظرفيةللقرآنماتحققلشهررمضان،فلمجموعهذهالمعانيقيلأُنْزِلَفِيهِالْقُرْآنُ».

* ولاشكفيأننزولالقرآنجملةإلىالسماءالدنياهومنأمرالغيبالذيتتوقفمعرفتهعلىورودنصفيالقرآنأوالحديثيبينه،ولكنقولالصحابيفيالأمورالتيليستموضعاجتهاد،إذاثبت،حكمهحكمالحديثالمرفوع،وهوماينطبقعلىتفسيرابنعباسهنا،فقدنصالسيوطيعلىصحةأسانيدالأحاديثالتينقلتذلكالتفسيرعنابنعباس (3). فمنالمرجحأنيكونابنعباسقدفهمالتفسيرمنالنبيصلىاللهعليهوسلم.

علىأنممايجبالالتفاتإليهفيموضوعنزولالقرآنهوأنهذاالاختلاففيتفسيرهذهالآياتلايؤثرفيشيءعلىنصالقرآنالكريم،فسواءثبتمانقلعنابنعباسأومارويعنعامرالشعبيفنصالقرآنواحدفيكلاالقولين،وهمايؤولانإلىنتيجةواحدةوهيأنالنبيصلىاللهعليهوسلمتلقىالقرآنمفرقافيثلاثوعشرينسنة،لكنالعلماءقالواإنفيإنزالهجملةإلىالسماءالدنيا «تفخيملأمرهوأمرمنأنزلعليه،وذلكبإعلامسكانالسماواتالسبعأنهذاآخرالكتب،المنزلعلىخاتمالرسل،لأشرفالأمم،قدقربناهإليهملننزلهعليهم،ولولاأنالحكمةالإلهيةاقتضتوصولهإليهممنجمابحسبالوقائعلهبطبهإلىالأرضجملةكسائرالكتبالمنزلةقبله،ولكناللهتعالىباينبينهوبينها،فجمعلهالأمرين: إنزالهجملةثمإنزالهمفرقا».

**ثانيا- حكمةنزولالقرآنمنجما:**

استغرقنزولالقرآنالكريمثلاثاوعشرينسنة،فهولايشكلظاهرةمؤقتةأوخاطفة،ولقدنزلتالآياتمنجمة،قدتنزلالسورةالكاملةأوالآيات،أوالآيةالواحدة،وبينكلوحيومايليهمدةانقطاعقدتطولوقدتقصر،بحسبالتقديرالإلهي،لابرغبةالنبيصلىاللهعليهوسلمفإنرسولاللهصلىاللهعليهوسلملميكنيملكمنأمرالوحيغيرالتلقيالواعي،ثمالحفظوالتبليغ. فاللهسبحانههوالذياختارهذاالطريقلتنزيلالقرآن. وقدتمنىالكفارنزولالقرآنجملةواحدة،ولكناللهتعالىبيّنأنوراءنزولهمفرقاحكمةيتعلقبهااستمرارالدعوةونجاحها،فقالسبحانه: وَقالَالَّذِينَكَفَرُوالَوْلانُزِّلَعَلَيْهِالْقُرْآنُجُمْلَةًواحِدَةًكَذلِكَلِنُثَبِّتَبِهِفُؤادَكَوَرَتَّلْناهُتَرْتِيلًا (32) وَلايَأْتُونَكَبِمَثَلٍإِلَّاجِئْناكَبِالْحَقِّوَأَحْسَنَتَفْسِيراً (33) [الفرقان].

ويقدمالمفسرونلقولهتعالى: مانُثَبِّتُبِهِفُؤادَكَ (120) [هود] تفسيرين،هما: (2) 1 - لنقوّيبهقلبك،فإنالوحيإذاكانيتجددفيكلحادثةكانأقوىللقلب،وأشدعنايةبالمرسلإليه.

2 - لتحفظه،فيكونفؤادكثابتابهغيرمضطرب،وكانالنبيصلىاللهعليهوسلمأميالايكتبولايقرأ،ففرّقعليهالقرآنليتيسرعليهحفظه.

ولاشكأنتفريقالنصالذييرادحفظهييسرالأمرعلىمنيريدأنيحفظه،لكنذلكقدلاينطبقعلىالواقع،فقدصرحالقرآنأنحفظالوحيمكفولللنبيصلىاللهعليهوسلمكمامرذلك،واللهتعالىيقول: سَنُقْرِئُكَفَلاتَنْسى (6) [الأعلى] و (لا) هنانافية،والآيةتعنيأنكتحفظهولنتنساه،إِلَّاماشاءَاللَّهُ (188) الأعراف].

والدارساليوموالمتأمللتاريخالدعوةتتجلىأمامهحكمةنزولالقرآنمفرقا،بالنسبةإلىالنبيصلىاللهعليهوسلموبالنسبةإلىالمؤمنين،فالدعوةالإسلاميةجاءتلتصلحأوضاعالبشريةالفاسدةفيالعقيدةوالسلوكوالتشريع،ولايناسبتحقيقذلكإلاالدعوةالمتأنية،قالاللهتعالى: وَبِالْحَقِّأَنْزَلْناهُوَبِالْحَقِّنَزَلَوَماأَرْسَلْناكَإِلَّامُبَشِّراًوَنَذِيراً (105) وَقُرْآناًفَرَقْناهُلِتَقْرَأَهُعَلَىالنَّاسِعَلىمُكْثٍوَنَزَّلْناهُتَنْزِيلًا (106) [الإسراء] أيلتقرأهعلىالناسعلىتؤدة،فترتلهوتبينهولاتعجلفيتلاوته.

وتلكفيالواقعهيالطريقةالتربويةالوحيدةالممكنةفيحقبةتتسمبميلاددينوبزوغحضارة،فكانالوحيخلالثلاثةوعشرينعامايهديسيرالنبيصلىاللهعليهوسلموأصحابهخطوةخطوةنحوهذاالهدف،وهويحوطهمكللحظةبالعنايةالإلهيةالمناسبة،فهويعززجهودهم،ويقويإرادتهم،حتىتكللذلكالكفاحبالنصرالمبين،فالحركةالتاريخيةوالاجتماعيةوالروحيةالتينهضبأعبائهاالإسلاملاسرلهاإلافيهذاالتنجيم.

جاءهذاالقرآنليربيأمة،ويقيملهانظاما،وجاءليكونمنهجتربيةومنهاجحياة،لاليكونكتابثقافةيقرألمجردالاستمتاعالعقليولالمجردالمعرفة،ومنثمجاءهذاالقرآنوفقالحاجاتالحيةللجماعةالمسلمة،وهيفيطريقنشأتهاونموها،ووفقاستعدادهاالذيكانينمويومابعديومفيظلذلكالمنهجالتربويالإلهيالدقيق.

وقدأدركالصحابةتلكالحكمةالتربويةمننزولالقرآنالكريممفرقا،وهمالذينعاشواتجربةتلقيالقرآنعلىذلكالنحو،فلمسواثمارذلكالمنهجعمليافيحياتهم،قالتالسيدةعائشةأمالمؤمنين،رضياللهعنها،كماجاءفيصحيحالبخاري: « ... إنمانزلأوّلمانزلمنه (أيمنالقرآن) سورةمنالمفصلفيهاذكرالجنةوالنار،حتىإذاثابالناسإلىالإسلامنزلالحلالوالحرام،ولونزلأولشيءلاتشربواالخمرلقالوا: لاندعالخمرأبدا،ولونزللاتزنوالقالوا: لاندعالزناأبدا،لقدنزلبمكةعلىمحمدصلىاللهعليهوسلموإنيلجاريةألعب: بَلِالسَّاعَةُمَوْعِدُهُمْوَالسَّاعَةُأَدْهىوَأَمَرُّ (46) [القمر] ومانزلتسورةالبقرةوالنساءإلاوأناعنده ... .

قالابنحجرفيشرحهللحديث: «أشارتإلىالحكمةالإلهيةفيترتيبالتنزيل،وأنأولمانزلمنالقرآنالدعاءإلىالتوحيد،والتبشيرللمؤمنوالمطيعبالجنة،وللكافروالعاصيبالنار،فلمااطمأنتالنفوسعلىذلكأنزلتالأحكام ... ».

لميكننزولالقرآنالكريممفرقامصادفةإذن،ولمتكنتلاوةالنبيصلىاللهعليهوسلمللقرآنعلىالناسعلىمكثوأناةدونحكمة،فقدظلالقرآنينزلفيمكةمدةثلاثعشرةسنةوهويعالجأسسالعقيدةوأصولالدين،حتىإذااستوفتهذهالقضيةماتستحقهمنالبيانواستقرتفيقلوبالجماعةالمؤمنةاستقرارامكيناثابتا،نزلتالآياتتفصّلمايتعلقبنظامالإسلامفيالحياة،فكانتالنفوسالمؤمنةتتلقىالتشريعاتبالرضاوالقبول،فأبطلتالخمروأبطلالرباوأبطلالميسر،وأبطلتالعاداتالجاهليةكلها،أبطلتبآياتمنالقرآن،أوكلماتمنالرسولصلىاللهعليهوسلمبفضلذلكالمنهجالتربويالربانيالعظيم.